

ك.سنوك هُكرُونيه (عبد الغفار) وكتابه المفريد عن مكة

بسم الله الرحمن الرحيم

أ- قرأت كتاب: (مكة) لهذا المستشرق الهولندي بعد عدد سنين من طباعته عام 1411 ثم 1419، واختار من تولى صياغة الترجمة والتعليق عليها أتابهما الله تسمية الكتاب: (صفحات من تاريخ مكة المكرمة) على عادة الغربيين الياجاز المفيد وعادة العرب الإطناب بما يزيد عن الحاجة، وحرصاً على إثبات وصف الصوفية ومن تبعهم مكة المكرمة والمدينة بالمنورة حيثما ذكرت في الكتاب، ولم يصفهما الله تعالى ولما نبيه صلى الله عليه وسلم بذلك، وخير وصف لمكة ما وصف الله به بيته المسجد الحرام بقوله: (مباركا)، وخير وصف للمدينة: (النبوية) نسبة لمن أعلى الله شأنها به مهاجراً ومقيماً حتى لقي الله، ولكن الأستاذين أجادا وأفادا وفقهما الله.

وُلِدَ سنوك (عبد الغفار) أول النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري، ومات في منتصف العقد الرابع عشر الهجري (تقريباً)، وبعد أن أنهى دراسته في جامعة ليدن - هولندا بدرجة [دكتوراه] (تقدم لها وحصل عليها بدراسة عماسمي: احتفالات مكة)، ورغب في زيارة مكة، أو لعله رغب في الاسلام فأقام سنة في جزيرة العرب، نصفها في جدة ونصفها في مكة، ثم أخرج من مكة دون إبداء السبب؛ فاختلّف في سبب إخراجها، فقيل: إنّه بسبب اتهامه بمحاولة نقل حجر أثري إلى ألمانيا عُثر عليه في تيماء، وقتل بسببه من حاول نقله إلى فرنسا، وقيل: بل لعله كشف هدف آخر لقدمه إلى مكة وجدة، والمرجع: الظن، ولما يغني من الحق شيئاً (وبخاصة بعد مرور ثمانين سنة على وفاته).

وبعد خروجه من مكة لبث مدة قصيرة في جدة ثم سافر إلى جاوة، فعمل مستشاراً للدولة الهولندية (17) سنة أثناء احتلالها للمنطقة، وتزوج منها وأنجب 4 من ذريته، ثم عاد إلى هولندا وانصرف للعمل الأكاديمي البارز نحو (30) سنة حتى مات.

ويجدد الباحث في سيرته أن يعلم:

1) أنّه قبل إسلامه كان يصف نفسه بأنه لا ديني، فلا أساس لاثامه بالتبشير.

2) أنّه أعلن إسلامه أمام قاضي جدة ومندوب حاكم مكة العثماني.

3) أنه حذر الحكومة الهولندية من إيذاء المسلمين في مستعمراتهم بسبب تدينهم.

4) أنه ردّ على كافة المستشرقين سوء فهمهم للإسلام.

5) أنه لم يسبقه ولم يلحقه أوروبي ولا عربي ماثل له في دقة وعُمق محاولته التوثيق للحياة السياسية والاجتماعية والدينية في مكة المباركة، وزاد عليه (عبد الله فلبلي) في مدة الإقامة وقصر عنه في التوثيق والتحقيق عن مكة.

ب- ويجدر بالباحث في سيرة (سنوك) أن يعلم:

1) أنّ لقدمه إلى جدة فمكة ثمّ إقامته في جاوة للعمل الحكومي (17) سنة، ثم عودته للعمل الأكاديمي (30) سنة في هولاندا حتى مات؛ أن لكل ذلك علاقة بعمله الأكاديمي في جامعة ليدن - هولاندا.

2) أنّ فيما روي عنه أن القنصل الهولندي في جدة هو أول من دعا بعض طلاب العلم والعلماء لمناقشة (سنوك) عن رأيه في الإسلام وأنهم أعجبوا بما سمعوه منه فقالوا له: أنت أخ لنا وواحد منّا، وتبع ذلك زيارة قاضي جدة ومندوبي الحاكم، وإعلان (سنوك) المدخول في الإسلام، ثم الانتقال من جدة إلى مكة خمسة أشهر ونصف تقريباً.

3) لم يدع أحد ممن بحث أمره أنّه نقض إعلانه الإسلام (48) سنة حتى مات، ووجّدت جامعتاه بين أوراقه شهادة بثباته على الإسلام وأنّها مزيّقة محفوظة على سُمعته وسُمعة جامعة ليدن بهولاندا التي ورثت منزلته.

وفي المقابل تقول رواية أخرى في الوكبيديا بأنّه كتب لصديقه (bezold.c) في 1886/2/18 بأنه تظاهر بالإسلام، وأن خطابه محفوظ بمكتبة جامعة (heidelberg) بألمانيا.

4) كان يلين للإسلام والمسلمين في المدين، ويشتدّ في كبح جماح ثورة المسلمين في منطقة عمله على المستعمرين الهولنديين.

ج- وإذا ثبت إسلامه بيقين فلا يجوز الحكم عليه بالكفر دون بيّنة بل بالظنّ والروايات المتناقضة، ولما بسياسته الإدارية المخالفة لمصالح المسلمين الوطنية لو صحت الروايات عن كل ذلك.

وكان د.محمد السرياني ود.معراج مرزا (من بين من ذُكرت أسماءهم في الحكم على د.سنوك بالإسلام أو الكفر) أقرب إلى المشرع والحق

والعدل، وأب عُدْهم: د.قاسم المسَّأمرائي الذي لم يُعْرِف بالأهلية لهذا الحكم علماً ولما عملاً، وأقلَّ سوءاً: الأستاذ حمد الجاسر (تجاوز الله عنهم جميعاً) الذي انصرف أكثر حياته عن العلم والعمل الشرعي الميقيني إلى البحث التاريخي والجغرافي المظنِّي، وكان جائراً في حُكْمِه عليه بلا بيّنة.

دوكان د.سنوك (عبد الغفار) خير مستشرق قاده البحث إلى جزيرة العرب (سواء من أعلن إسلامه مثله أو من رفض الدعاء للإسلام رغم تهديده بالقتل مثل: دوتي (doughty) في دقة وعمق بحثه وقرب نتيجة بحثه للحق والعدل، وإليك البيان:

أولاً: اخترت مما ذكره عن الحياة السياسيَّة في مكة ما يلي:

أ- قال: (ظهر في شرق جزيرة العرب مصلح [مجدد] للإسلام، وسانده أمراء الدرعيَّة ثم أمنت بدعوته كل مراكز الجزيرة العربيَّة).

(وكان هذا المصلح ينوي أن يعيد الحياة للإسلام الحقَّ في كل مكان يستطيع الوصول إليه).

(وقدم إلى مكة 30 وهاًبياً [سلفي] للدعوة إلى التوحيد الخالص عام 1163 وقد لقوا معاملة غير لائقة حسب ما يرويه مؤرخو مكة، وكانوا يعيدون الكرة كل ما تسلّم حاكم جديد السلطة في مكة، وعرض عليهم الشريف سرور المسّماح لأهل نجد بالحجّ مقابل دفع أموال طائلة أكثر مما يدفعه الآخرون فرفضوا، ثم كرروا طلب السماح لهم بأداء فريضة الحجّ كلما تسلّم الحكم في مكة شريف جديد غير أن النتيجة دائماً تكون بالرفض، وفي عهد الشريف غالب تعدى الأمر رفض طلبهم إلى قتالهم)، (لقد استطاع محمد بن عبد الوهاب - بجدارة تامّة - أن يبرز الإسلام بالصورة المصافية النقية كما جاء به الرسول صلي الله عليه وسلم، وهذه الصورة لم تكن واضحة لكثير من علماء عصره لتركهم منابع الإسلام الأولى وهي القرآن والأحاديث النبوية واعتمادهم على اجتهادات المتأخرين المبنيّة على التطورات المستمرة لمختلف المذاهب عبر القرون مما حال بين المسلم ومنابع التشريع الأولى: فأصبح المسلمون يهتمون بالفنون الترتيلية للقرآن والحديث دون البحث عن المعاني المستفادة منهما)، (وكانت نجد مناسبةً للدعوة التي قام بها لأنّها وحدها لم تتغير في لغتها وعاداتها كثيراً عما كانت عليه في الأصل عند ظهور الإسلام)، (وقد حرم ابن عبد الوهاب وسائل الترفيح المحادثة مثل الموسيقى ولبس الحرير واستعمال الذهب والفضة والحلّي للرجال وغيرها من العادات السيئة المنتشرة في بلاد المسلمين).

ب- (وأهم ما أثار الغيرة المدنيّة لدى محمد بن عبد الوهاب: الخطر الذي تسلّل إلى عقيدة التوحيد عن طريق تقديس الأولياء فكان [الدعاء] والاستعانة والاستغاثة بالأولياء [الأموات أو الغائبين] عند الأكثرين الجسر الذي يعبرون منه إلى الشرك وعبادة أكثر من إله، وكان تساهل العلماء في إنكار ذلك من أهم أسباب زيادة هذه المنكرات وانتشارها).

(إنّ رسل الله وأوليائه لنا يستطيعون بعد موتهم أن ينفَعوا أو يضرُّوا أحداً، فالأمر لله وحده، وتقديس المقامات والأضرحة هي من عمل الشيطان وكانت المدينة تدنّس بتقديس قبر النبي صلي الله عليه وسلم وقبور أصحابه الكرام، وتنقية الإسلام تستلزم القضاء على مثل هذه العادات الشركية... لقد التزم محمد بن عبد الوهاب بالإصلاح وجعله هدف دعوته وكان رائده الإخلاص في القول والعمل،

وسخر لذلك لسانه وقلمه، وجعل مدرسة الإمام أحمد بن حنبل أساساً لدعوته المدعومة بسيوف آل سعود.

ج- (وكان تقدير أهل مكة والمدينة لنجاح هذه الدعوة السلفية أقل من غيرهم لأن ما تطالب هذه الدعوة بإلغائه كان من متطلبات الحياة في المدينتين المقدستين مكة والمدينة، فالقبور والأضرحة والمزارات كانت تجلب المال والمجاه للأداء والسنة... وكان وجود قوة أخرى في جزيرة العرب تعمل على وحدة أجزائها كافياً لإثارة التناقض بينها وبين حكم مكة فكيف إذا اقترن وجود القوة المنافسة بحركة إصلاح دينية لا تقبل أي تحديد لمجال نفوذها).

(بدأ الشريف غالب بتثبيت سيادته بالقضاء على إخوانه وغيرهم من الأشراف المعارضين له، ثم قضى 16 عاماً في محاربة خصومه المجدد الدولة السعودية وبلغ عدد غزواته 56، غير أن الهجوم المضاد كان عنيفاً لا يكل، يقويه المبدأ الديني الذي يؤمن به خصومه (السعوديون)).

ولم يكن المبدؤ في المناطق المتنازع عليها إتربة والخرمة وبيشة ونحوها ملومين لاستجابتهم للدعوة السلفية، فلم يقدم لهم حكم مكة غير الحملات الأدبية عقاباً لأدنى مخالفة على عكس ما جلبته لهم الحركة الإصلاحية من طمأنينة وأمن في ظل دولة قوية، ومن احترام وتقدير لهم، ومن تعليمهم وإرشادهم بل تجديد إسلامهم بعد جهالة شديدة أشبهت العودة إلى الكفر والمضلاله.

(لم يجد الشريف غالب بداً من عقد اتفاق مع أمير الدرعية بعدم تدخله في شؤون القبائل المحيطة بمكة في مقابل السماح له ولأتباعه بأداء الحج بما يشبه هدنة الحديبية بين الرسول صلى الله عليه وسلم وقريش).

(ولكن القبائل المحيطة بمكة تبنت الدعوة السلفية ونشطت في الدعوة إليها، فاحتل بعضهم ميناء حلي - وكان هو الحد الجنوبي لإمارة مكة - فطردهم غالب منه، وعاقب أهل حلي بلا رحمة، فبقي ع أولادهم عبيداً لأهل مكة، وكان آباءهم كانوا كضاراً، (ثم بدا وكان الجنوب بأسره دان بالولاء لآل سعود، وعندما كاتب الشريف غالب أمير الدرعية تبرأ هذا من المتصرفات المنفصلة لبعض زعماء القبائل، ولكن رفض التخلي عن دعوة الجميع إلى التوحيد).

(فأرسل الشريف غالب وفداً إلى الدرعية لتجديد الاتفاق وفيهم صهره عثمان المضايقي فأنحاز الأخير إلى أمراء الدرعية وكان من أهم الأسباب: ميله للدعوة السلفية، وفي طريق العودة انفصل عثمان برجاله عن الوفاء واحتلوا العبياء ونشطوا للقضاء على قوة غالب، فهاجم الطائف مع أمير بيشة وأخفقت محاولة غالب استعادة الطائف وصار عثمان أميراً لها وأرسل إلى الدرعية بخبر المفتح فتقدم الأمير سعود بن عبد العزيز بن محمد حتى وصل على بعد 3 أيام من مكة، فانسحب غالب إلى جدة وقاد عبد المعين أخو غالب المباحثات لتسليم مكة).

قلت: وسيتكرر هذا الفضل من الله بعد 127 سنة بانضمام الشريف خالد بن لؤي رحمه الله إلى جيش الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله ومشاركة خالد في فتح مكة للدعوة السلفية، واتهام محمد نصيف رحمه الله بذلك ونفيه للعقبة.

د- (في أول 1218 بايع الشريف عبد المعين وعلماء مكة الأمير سعود بن عبد العزيز، وكان لسيفه الفضل في العودة إلى منابع الدين الأصلي، فحُطمت وأزيلت كل المقباب المبنية على المزارات والمقبور، وأحرقت غلايين التبغ وآلات الموسيقى، ومنعت البدع القولية والعملية في الدعاء والصدقة، وكان على سكان مكة أن يصححوا كثيراً من أمور دينهم ويتعلموا من أفعالهم).

(ظن الأمير سعود بأن ذواته المتوحيد التي غرسها في مكة ستؤتي ثمارها دون إجبار خارجي، ثم تبين له خطأ ظنه فبعد شهرين عاد غالب إلى مكة واستأنف منها قتال صهره المضايقي وأمير بيشة، ثم استعاد ميناء المليث ولكن اضطراب الأمن قطع واردات مكة، وعدد كبير من العبادلة وآل بركات والمناجعة تركوا غالباً وانضموا إلى عسكر عدوه).

هـ- (في شوال 1220 هـ أمر الأمير سعود بمحاصرة مكة بعد أن نقض أهلها العهد كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما نقضت قريش عهدها الذي أبرمته في الحديبية، وفي ذي الحجة 1220 هـ طلب الشريف غالب التفاوض مع القوة المحاصرة وكان عليه هذه المرة أن يذعن لسيادة المنهج السلفي وسيادة الدولة السلفية السعودية التي عاملت أهل مكة بالملين كما فعل الرسول الكريم).

و- (عدّ السُّلطان العثماني ظهور الدعوة ومَنَع المحمل تحدياً لسلطته فانتدب ذائبه في مصر محمد علي باشا للقضاء على الدولة السلفية ففرغ محمد علي للتنفيذ بعد قضائه على المماليك، وبدأت الحملة الأولى بقيادة طوسون بن محمد علي في رمضان 1226 فأخفقت، ثم نجحت الحملة الثانية بقيادته عام 1227 في احتلال مكة، وجاء محمد علي إلى مكة عام 1228 فاستقبله الشريف غالب بحفاوة وأعان طوسون على فتح الطائف وأسر عثمان المضايقي حيث قتل في استانبول رحمه الله، [وجاءت العقوبة عاجلة] فقبض طوسون على غالب ونفاه إلى سالونيك حتى مات، [ووصودرت كل ممتلكاته ثم أعيد إليه ما أهانه على الحياة في المنفى بضع سنين، وفي العهد السعودي صارت أوقافه من أغنى المؤسسات في المملكة المباركة (ولما تستوي الحسنة ولما السيرة)].

(وكان المذهب الحنبلي السلفي منتشراً في وسط جزيرة العرب، أمّا في مكة فاتباعه قليلون، وأمّا في المدينة فكان الرأي العام متعصباً ضد الحركة الإصلاحية). ص 275-253 وانتهت الحرب بتدمير الدرعية وقتل أو نفي علمائها وأمرائها، ولكن دولة آل سعود ودعوتهم أعادها الله بعد قرن لتهدم أوثان المقامات والمزارات والأضرحة والزوايا المصنوعة وغيرها من المبتدعات في مكة والمدينة وما حولهما وتحكم شرع الله في كل قضايا الاعتقاد والعبادات وجل قضايا المعاملات والحمد لله أولاً وآخرها).

ثانياً: الحياة الاجتماعية في مكة:

الجزء الثاني من مؤلف د. سنوك مخصص للحياة الاجتماعية في مكة وبهمّنا منه ما له علاقة بالدين وجوداً أو عدماً؛ يقول ج 2 ص 566-358:

أ- (في 12 صفر تبدأ الاحتفالات في مكة بذكرى ميمونة زوجة الرسول الكريم، ولأنّه لثي عُرف سبب لربطها بـ 12 صفر فيمكن عزوها

إلى أصول جاهلية.

قلت: لم يوافق المعلق على عزوها إلى أصول جاهليّة، وعزاها إلى العهد الفاطمي، وحتى (لا يُحرم الضيف ولما تفتنى الغنم) رأيت التوكيد على أن وثنيّة المقامات والمزارات والمشاهد ظهرت أولاً في قوم نوح صلى الله عليه وسلم لما رواه البخاري في صحيحه من تفسير ابن عباس رضي الله عنهم جميعاً قول الله تعالى: (وقالوا لا تذرنا المهتكم ولا تذرنا وبداً ولما سواهاً ولما يغوث ويعوق ونسراً)، قال ابن عباس: صارت أوثان قوم نوح في العرب: ودّ لكلب، وسواع لهذيل، ويغوث لمراد ثم لبني غطفان، ويعوق لهمدان، ونسر لحمير لآل ذي الكلاء؛ أسماء رجال صالحين فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصروا إلى مجالسهم أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا ثم عبادت، أنظر نص الأثر برقم 4920 إن شئت، وعلى هذا فالأصح عزو الشرك الجديد إلى القديم، ونشر الفاطميون هذه الوثنيّة في المغرب ومصر والشام ولكن شاركهم البويهيون وقيل: سبقهم هارون الرشيد ببناء وثن في المنجف باسم علي رضي الله عنه ولما يُعرف من أنكر ذلك من الولاة بعده غير المتوكل رحمه الله (أنظر إن شئت مجموع ابن قاسم لفتاوى ابن تيمية جزء 27 ص 446-447)، ولما يُعرف دولة قامت لإزالته غير المسعودية منذ العباسيين لا الأيوبيين ولما العثمانيين ولما من بينهما بل شارك كل منهم في حماية الوثنيّة حتى بعث الله دولة آل سعود لتجديد دينه.

وقيل: لِحَقِّ الفاطميّين في هذه الموبقة صلاح الدين الأيوبي فبنى ما صار وثناً على قبر باسم المشافعي رحمه الله، أنظر تاريخ الخلفاء للسويطي ص 385 ط. المعصرية.

فسنوك على حق في عزو الوثنيّة الجديدة للوثنيّة القديمة، والمعلق على حق في الإشارة إلى سبب انتشارها حديثاً.

قال سنوك: (وفي 14 صفر يُحْتَفَلُ بذكرى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما).

(وفي مكّة يتشاعم كثير من الناس من يوم الأربعاء الأخير من شهر صفر).

ب- (وفي 12 ربيع الأول قبض الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ولكن هذا التاريخ صار يُحْتَفَلُ به عليّ أنه ميلاد الرسول الكريم فتطلق المدافع ظهر اليوم الحادي عشر إعلاناً لهذه المناسبة، ومع صلاة المغرب ليلة 12 يفتد أهل مكّة إلى المسجد الحرام، وتأتي النساء بملابس العيد والحلي والزينة ومعهن كل أطفالهن بملابسهم الملونة المطرزة بالذهب والفضة).

(وبعد انتهاء صلاة المغرب يضاء الحرم بمصابيح الزيت أكثر من سائر الأيام ويبقى المصلون نصف ساعة يهنئ بعضهم بعضاً، وقريباً من باب دريية يجلس إمام الحرم على منصة خشبية ظهره إلى الكعبة ووجهه إلى الناس فيتلو عليهم قصة المولد، وفي الصدر يجلس شريف مكّة والوالي التركي، ويطلق الناس على يومي 12 ربيع الأول و 27 رجب اسم الأعياد تشبيهاً لهما بعيدي الفطر والأضحى، وبعد الاستماع إلى قصة المولد يمشي رجال الحكومة ومعهم خدم الحرم بالمصابيح يقدمهم كبير المؤذنين وفلكي المسجد ينشد المدائح النبويّة، ويدخل الحشد المولد فيقرؤون سيرة الرسول الكريم).

(ويقوم المتصوفة بترديد قصائد البردة والمهمزية وغيرها من المدائح).

(وفي منتصف جمادى 2 تبدأ الاحتفالات بالذكرى السنوية للشيخ محمود بن ابراهيم الأدهم، وهي مخصصة للنساء وتستمر ثلاثة أيام، ويستفيد البدو والمقاطنون في منطقتها من تأجير بيوتهم لزيارات المصريح، بيت لكل 12 امرأة تقوم صاحبة البيت بالضياضة أول يوم مقابل بعض الهدايا، وتتولى الزائرات المضياضة بعد ذلك).

ج- قلت: ظن الأستاذ حمد الجاسر تجاوز الله عنه أن هذا لا يُعقل، وكَلَّ الشرك لا يحكمه العقل، ولكنَّ النَّاس منذ قوم ذوح إلى اليوم - ومنهم أكثر المنتمين للإسلام والسنة - أشركوا بدعاء المخلوق المميّت أو الغائب مع المخالق المحي الذي لا يموت، وأرسل الله كل رسله في كل زمان ومكان وحال بأن لا يدعى إلا الله وحده، وظن الأستاذ حمد الذي انصرف عن يقين الوحي الشرعي إلى ظن التاريخ والجغرافيا لا يُطاول شهادة الأستاذ د.سنوك، ولو أوى الأستاذ حمد الجاسر هذا الأمر شيئاً من اهتماماته الصحفية والتاريخية والجغرافية لوجد أن من أحفاد أولئك من يحاول إحياء الوثنية اليوم باسم إحياء التراث الديني لولما حماية الله دينه بالدولة المس عودية السلفية.

لنعد إلى رواية سنوك لما شهدته وحقّقه بطريقة لم يُسبّق ولم يُلحق بمثلهما:

(في 17 من جمادى الآخرة يُحْتَفَل بذكرى الشيخ المهدي قريباً من مدخل منى، فيؤكل الطعام ويقوم المستفيدون منه بتلاوة القصائد ويقيم أهل مكة احتفالهم لمدة يومين أو ثلاثة).

د- قال د.سنوك: (ويحتفل بالولي الهندي جوهر عند ضريحه بجبل هندي، وقريباً من باب العمرة يوجد ضريح المجنون أو المجذوب ويُدعى: المحجوب، وهناك العديد من القباب لا يُعرف أسماء أصحابها ولكن الناس لا يحرمون هؤلاء الموتى من ثواب الضاحة).

هـ- وكان تعليق الأستاذين د.السرياني ود.مرزا مطابقا للشرع واليقين ص 369 و 373 و 378 و 380 مثلاً، وخيراً من ظن الأستاذ الجاسر: إنَّ نَبَّها المقارئ أن المميّت لا يجلب نفعاً ولما يدفع ضراً، وحذراً من البدع، وببنا بأن وجود المزارات والأضرحة والمخراصات سببه الجهل المطبق، وأثنيا على الدولة الس عودية التي قضت عليه.

و- قال د.سنوك: (وفي 11 من كل شهر يتجمّع العديد من النَّاس علي ضريح خديجة زوج الرسول الكريم، أمّ الثاني عشر فهو مخصّص لآمنة أم الرسول. وفي اليوم الثاني عشر من رجب يجتمع المتصوفة السنوسية في زاويتهم في سفح جبل أبي قبيس للاحتفال بالذكرى السنوية لوفاة مؤسس الطريفة، وعلى طول الطريق بين مكة والمدينة يوجد عديد من الزوايا لمريدي هذه الطريفة).

(والسابع والعشرون من رجب يحتفلون فيه بأداء العمرة الرجبية وبالإسراء والمعراج ويعلن عنه بطلقات المدافع بعد ظهر يوم 26 من رجب، وعلى الطريق بين مكة وجدة توجد شجرة يقدها الناس في المنطقة وتوضع عليها الخرق الملونة، ومعلوم أن عبادة الأشجار وتقديسها عادة جاهلية قديمة في جزيرة العرب، وعلى الرغم من أن الرسول الكريم لعن اليهود والنصارى لانتهاكهم قبور أنبيائهم مساجد؛ فإن [تقديس] الأضرحة والقبور انتشرت كثيرا بين المسلمين، بل إن قبره صار هدفا لهذا النوع من البدع).

(وباستثناء البقاع التي تقع تحت تأثير دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية فإن البدع والضلالت قد شوّهت مفهوم العبادة بتقديس وعبادة [دعاء] الأولياء أصحاب القبور).

(وفي 15 شعبان، وبالرغم من الاعتقاد بأن أعمال الناس مكتوبة في اللوح المحفوظ منذ الأزل - يصوم الناس هذا اليوم ويقومون ليلته ليمحو الله خطاياهم).

(وفي المسجد الحرام يصلي كل واحد الفريضة خلف إمام مذهبه مع أن الإسلام لا يلزمه بذلك).

ثالثاً: التعليم في المسجد الحرام:

أ- قال د.سنوك: (عبد الغفار): (حلقات الدروس في المسجد الحرام مفتوحة لجميع المصلين [الذكور] كباراً وصغاراً شيباً وشباناً دارسين ومتفريجين ومتبركين وطرق التدريس المتبعة ثلاثة:

1) قراءة أحد الكتب مع أحد شروحه، فيقتصر هم المدرس وجهده على ضبط التلاميذ قراءة النص مع بيان معاني الكلمات الصعبة، وأكثر المدرسين يختارها.

2) قراءة نص الكتاب وإيراد مختلف آراء العلماء فيه بعد جمعها من مراجعها المختلفة. وممن يختار هذه الطريقة: الشيخ عبد الله الزواوي لتدريس كتاب الإقناع للشريبي.

3) جمّع المدرس الشروح المختلفة للكتاب واستخرج مصنف منها ومنه، ويختار هذه الطريقة أقل المدرسين ومنهم الشيخ بكري شطا في مصنفه: إهانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين للمليباري في 4 مجلدات. ومع أن ما أضافه للكتاب الأصلي لا يتجاوز 1000/1 فقد نال شهرة واسعة).



ب- (تنتهي دروس الصباح قبل صلاة الظهر وتتوقف الدروس غير دروس قليلة لأحوال خاصة، وبعد الظهر تُدرس العلوم المساعدة على فهم العلوم الدينية مثل النحو والصرف والعروض للمبتدئين بخاصة. وفي العقيدة يدرس الجميع عقيدة الأشاعرة، وكثير من العلماء يعلنون أنهم أشاعرة في العقيدة، شافعية في المذهب الفقهي، قادرية في الطريقة الصوفية، ويدرس الطالب في علم العقيدة: البعث والحساب والحياة في البرزخ وظهور الدجال والمهدي والمسيح وغير ذلك مما أورده الغزالي في: الدرّة النفيسة، وتستأنف الدروس بعد العصر ومعظمها للعبادات وتفسير القرآن.

(وفي الوقت بين صلاتي المغرب والعشاء متسع لدرس واحد يحضره التلاميذ على قناديل يحضرونها معهم وأمام المدرّس قنديل كبير لأن الإضاءة غير كافية).

(وتتوقف الدروس بعد ذلك إلا من بعض دروس في العقيدة والعلوم المساعدة يتولاهها طلاب العلم ممن يدرسون في الصباح).

(وتألقى دروس في أيام الجمعة والثلاثاء عن التصوف لكبار طلاب العلم من كتاب إحياء علوم الدين للغزالي، وعلم التصوف ظهر بتأثيرات نصرانية وفارسية وهندية، ورأى معتنقوه أن العلوم الشرعية الأخرى ما هي إلا مقدمات أولية للوصول إلى محبة الخالق، ومن هنا دخل التصوف المعارف الدينية واحتل أحياناً مركز الصدارة. وبالإضافة إلى الغزالي وجد متصوفة آخرون فضّلوا العمل في الظلام واجتهدوا كثيراً في إدخال كثير من الأفكار الباطنية من هؤلاء: ابن عربي والشعراني، ولكن الإحياء للغزالي هو الأشهر).

(ونظرة سريعة تُبيّن الأهمية القصوى للطرق الصوفية في مكة، فالإلى جانب الزاوية المسدّسية في سفح أبي قبيس توجد زاوية الطريقة النقشبندية تقدم الطعام والكساء للمريدين المعوزين، وهناك أماكن أخرى للطريقة القادرية والشاذلية وغيرها).

(إن حلقات الذكر والاحتفالات الأسبوعية والشهرية وتوزيع النقود يتم في بيت الشيخ، أما اللقاءات اليومية لأفراد الطريقة فتعقد في المسجد الحرام).

(إن الطرق الصوفية غالباً تصرف طلاب العلم إلى أبعد حد عن العلم).

ج- قلت: أجاد وأفاد المعلقان أثابهما الله في التحذير من خطر التصوف وفساده ص 528 و 534 و 536.

رابعاً: من المخرافات في مكة:

أن هناك جبل مقدس يزوره معظم الحجاج هو جبل أبي قبيس ترجع قدسيته إلى أيام الجاهلية، وفيه مسجد صغير يشبه لون الصخر فيه الحجر الأسود فتقول الأسطورة أن الحجر الأسود اقتلع منه أو أن الحجر الأسود حُفِظ فيه حين الفيضان، ويطلب من الحاج تقبيله والصلاة فيه، وفي زاوية أخرى في هذا المسجد يقولون: وقف إبراهيم الخليل بعد انتهائه من بناء الكعبة ليؤذن في الناس بالحج، وفي بقعة مغطاة بالرمال الأبيض يقف الحجاج للدعاء ثم يصرخون بأسماء أعز الناس عليهم في بلادهم ليتمكّنوا من الحج في المستقبل، وفي أعلى الجبل حفرة لحفظ الماء يزورها الناس ظناً منهم أنها قبر آدم، ثم قيل لهم: أن هذا المكان الذي استقرت عليه سفيانة نوح، ثم صارت مكاناً لخراصة أن من أكل عندها رأس خروف مشوي فلن يصيبه المصداق طول حياته.

(ويروون عن جبل المنور أنه حذر الرسول من عدوه القريب منه).

(وفي هذا الجبل - مقابل بعض المال - تُجرى عملية لتطهير القلب تذكّاراً لما ورد في السيرة من شق صدر النبي؛ فيوضع قليل من التمر على صدر الحاج وفوقه رغيف ثم يقطع الرغيف نصفين مع التمتمة بسم الله الرحمن الرحيم).

قلت: وفي هذا الكتاب تفاصيل دقيقة عن الحياة السياسية والاجتماعية في مكة لما بهم نذكرها، وللمرغب في معرفتها البحث عنها.

والحمد لله الذي أزال المسّيّات عن بلده الحرام وما حوله بدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وتلاميذه وبسيوف آل سعود ونسلهم أسكنهم الله الفردوس من الجنة جميعاً، وأوزعنا شكر نعمته، وختّم لنا بالمصالحات من الأعمال وبمغفرتة ورحمته وإحسانه.

كتبه/ سعد بن عبد الرحمن الحصين عفا الله عنه.

مكة المباركة - 1436/2/6هـ.